

## الأدب المقارن: مدارسه ومجالات البحث فيه

هادى نظرى منظم\*

ريحانة منصورى\*\*

### الملخص

الأدب المقارن عند رواده الفرنسيين وأساتذته، فرع من التاريخ الأدبي، يعنى بدراسة الأدب القومى فى علاقاته التاريخية بغيره من الآداب. هذا المفهوم الأساسى المتمثل فى دراسة التأثيرات قدغلب على الدراسات الأدبية المقارنة، منذ نشأة الأدب المقارن فى أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين الذى نشأ فيه بالتدريج الاتجاه الأمريكى، الذى لايشترط وجود علاقات تاريخية فى الأدب المقارن، ولكنه يعنى بدراسة التشابهات والتخالفات بين الآداب، كما يعنى بمقارنة الأدب بالفنون (الرسم، الموسيقى، السينما، ...) والإنسانيات (الفلسفة، التاريخ، السياسة، ...)

والعلوم البحتة.

وفى هذا المقال محاولة متواضعة لإيضاح المدرستين الفرنسية والأمريكية، وما لهما من مزايا وما أخذ عليهما من مآخذ، كما فيه حديث عن أهم وأحدث مجالات البحث فى الأدب المقارن المعاصر، وأكثرها غير معروفة بالنسبة للقارئ والدارس غير المتخصصين.

الكلمات الدليلية: الأدب المقارن، المدرسة الفرنسية، المدرسة الأمريكية، مجالات البحث المقارنى.

\*\*. عضو هيئة التدريس بجامعة بوعلى سينا، همدان - أستاذ مساعد.

\*\*. خريجة جامعة آزاد الإسلامية فرع طهران الشمالية.



## المقدمة

يعد «الأدب المقارن» ترجمة حرفية للمصطلح الفرنسي *comparative literature* والمصطلح الانكليزي *Literature comparative* وهو بإجماع المقارنين: «تسمية ناقصة في مدلولها، ولكن إيجازها سهل تناولها، فغلبت على كل تسمية أخرى». (هلال، ١٩٦١م: ١٦)

والمعروف أن فرنسا هي منشأ الأدب المقارن، وأن الفرنسي فيلمان<sup>١</sup> كان أسبق من غيره إلى استخدام المصطلح، وذلك من خلال المحاضرات التي ألقاها عام ١٨٢٨م حول علاقات الأدب الفرنسي مع بعض الآداب الأوربية. (برونيل وبيشوا وروسو، ١٩٩٦م: ١٨)

وكان وراء الدعوة إلى الأدب المقارن في فرنسا، أدباء وباحثون كبار ممن يؤمنون بالانفتاح والأممية، وينكرون كل نزعة إلى الانغلاق والانغزالية؛ ومن هؤلاء على سبيل المثال - لا الحصر - أمبير<sup>٢</sup>، وسنت بوف<sup>٣</sup> وجوزيف تكست<sup>٤</sup>، ويمكن اعتبار هذا الأخير أباً للأدب المقارن التطبيقي في مفهومه العلمي.

وإذا كانت نهاية القرن التاسع عشر قد شهدت تطور الأبحاث التطبيقية في الأدب المقارن، وبدء الاعتراف به في بعض الجامعات الفرنسية والأمريكية، فإن الثلث الأول من القرن العشرين شهد تأسيس الوعي النظري لمنهج الأدب المقارن. ومن أبرز الفرنسيين، الذين أسهموا في تحديد الأدب المقارن على نحو علمي في النصف الأول من القرن الماضي، بالد نسبرجر<sup>٥</sup>، وفان تيجم<sup>٦</sup>، وبول هازار<sup>٧</sup>، وجان ماري<sup>٨</sup> كاريه، وماريوس فرانسوا جويار<sup>٩</sup>، ... ممن أنشأوا أول وأشهر مدرسة مقارنة في العالم، هي المدرسة الفرنسية التقليدية (التاريخية).

1. A. Villemain

3. S. Beuve

5. F. Baldensperger

7. P. Hazard

9. M. F. Guyard

2. J. J. Ampère

4. J. Text

6. P. V. Tieghem

8. J. M. Carré



وبالمناسبة لانفوتنا الإشارة إلى أن المفهوم الفرنسي للأدب المقارن - وستجرى الإشارة إليه بعد قليل - يلتقى - جزئياً على الأقل - مع أكثر الاتجاهات السائدة في البلدان الأوربية، مما أتاح لهذا المفهوم أن يفرض نفسه في أغلب البلاد الأوربية، منذ أخريات القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين على أقل تقدير.

### مفاهيم الأدب المقارن وتعريفه

أثار تعريف الأدب المقارن الكثير من النقاش والخلاف، كما حدث بالنسبة لتسميته. وإذا صح أن استمرار الخلاف حول المصطلح أمر دون جدوى، إلا أن الخلاف حول المفهوم ظلّ ومازال كثيراً ما يغناء المدلول المقارنى. وفيما يلي أبرز مفاهيم الأدب المقارن حسب تسلسلها التاريخي:

المفهوم الأول. الأدب الشفوى المقارن: والمقصود بهذا المفهوم هو «دراسة الأدب الشفوى وبخاصة موضوعات القصص الشعبي وهجرته، وكيف ومتى دخل حقل الأدب الفنى». (ولك ووارن، ١٣٧٣ش: ٤١)

وليس من شك في أهمية الأدب الشفوى باعتباره جزءاً لا يتجزأ من البحث الأدبي، ومصدراً أولياً للكثير من الموضوعات والأجناس الأدبية؛ لكن الذى تجدر الإشارة إليه هو أن هذا المفهوم ظل حبيساً في أوربة ولاسيما الشمالية، وهو اليوم رافد جزئى من روافد المفهوم المقارنى. (الخطيب، ١٩٩٩م: ٢٦)

المفهوم الثانى. دراسة التأثير والتأثر: المفهوم الثانى للأدب المقارن يتمثل فى «دراسة الصلات الأدبية بين أدبين قوميين أو أكثر». (ولك ووارن، ١٣٧٣ش: ٤٢)

وإلى الفرنسي بالدنسبرجر يرجع الفضل فى تأسيس هذا المفهوم الأساسى للأدب المقارن، ثم زاده إيضاحاً وانتشاراً بول فان تبيجم «أول من قدم لنا دراسة شاملة عن الأدب المقارن بطريقة منهجية ومنظمة». (مكى، ١٩٨٧م: ٧٥)

يقول فان تبيجم فى كتابه الأدب المقارن: «...يخشى أن يظن أن المقصود بالمقارنة هو تنزيه المتشابه من الكتب والنماذج والصفحات من مختلف الآداب، لمعرفة وجوه



الشبه ووجوه الخلاف، لا لغاية أخرى غير إرواء حب الاطلاع، وتحقيق رغبة فنية أو إصدار حكم تفضيلي ينتهي إلى تصنيف. ولا نكران أن هذا الضرب من المقارنة عمل شيق جداً ومفيد جداً... ولكن ليس له قيمة تاريخية، ولا يتقدم بتاريخ الأدب خطوة واحدة إلى أمام... ينبغي أن نفرغ كلمة مقارنة من كل دلالة فنية ونصب فيها معنى علمياً.» (علوش، ١٩٨٧م: ٦٩ و ٧٠)

ويحدده جان ماري كاريه بقوله: «إن الأدب المقارن فرع من التاريخ الأدبي، لأنه دراسة العلاقات الروحية الدولية، والصلات الواقعية التي توجد بين بيرون<sup>١</sup> وبوشكين<sup>٢</sup> وجوته<sup>٣</sup> وكارليل<sup>٤</sup>... أى بين المنتجات والإلهامات، بل بين حيوات الكتاب المنتمين إلى آداب عدة. وهو لا ينظر من وجهة جوهريّة إلى المنتجات من حيث قيمها الأصلية، ولكنه يعنى على الأخص بالتحويلات التي تخضع لها كل دولة أو كل مؤلف مستعاراته. ففي الواقع إن كلمة التأثير معناها غالباً التأويل، فرد الفعل، فالمقاومة، فالمعركة.» (جويار، ١٩٥٦م: ل)

وأوضح تعريف في هذا المجال هو ما قدّمه جويار تلميذ ماري كاريه بقوله: «الأدب المقارن هو تاريخ العلاقات الأدبية الدولية. فالباحث المقارن يقف عند الحدود اللغوية والقومية ويراقب مبادلات الموضوعات، والفكر، والكتب، والعواطف بين أدبين أو عدة آداب.» (المصدر نفسه: ٥)

ويتضح الآن مما سبق أن الأدب المقارن وفق مفهومه الفرنسي التقليدي (مفهوم التأثيرات):

١. فرع من تاريخ الأدب ومكمل له. ثم استقل عنه فيما بعد، كما استقل عن النقد الأدبي ونظرية الأدب، ولكن هذه الاستقلالية نسبية نظراً لتلاحم الأدب المقارن مع هذه الحقول الثلاثة.

٢. الأدب المقارن خضع خضوعاً كبيراً لتاريخية القرن التاسع عشر وفلسفته الوضعية.

1. Byron  
3. Goethe

2. Pouchkine  
4. Carlyle



وبعبارة أخرى: «شكّل التواءم بين النزعتين التاريخية والوضعية أساساً نظرياً لما يعرف بالمدرسة الفرنسية في الأدب المقارن.» (عبود، ١٩٩٩م: ٢٧٠)

٣. ليس الأدب المقارن هو الموازنة أو المقارنة بين الآداب، ولكن المقارنة تعد نقطة بدء ضرورية تمكن الباحث من اكتشاف التشابهات والتماثلات أو الفوارق والخلافات بين الأعمال الأدبية.

٤. الأدب المقارن في مفهومه التقليدي يشدد على اختلاف اللغة كشرط ضروري لقيام الدراسات المقارنة. وقد أثار هذا الشرط اعتراضات عديدة فيما بعد، منها أن هذا الشرط إنما وضع «من أجل خدمة التبعية، وليس من أجل خدمة دراسة الفوارق بين الشعوب.» (المناصرة، ١٩٨٤م: ١١٨)

٥. الأدب المقارن يركز على الأدب واللغة القومييين، ويتخذ من الأدب القومي محوراً تدور حوله الدراسات المقارنة.

٦. الأدب المقارن يعنى برصد الصلات الواقعية والعلاقات التاريخية بين الآداب، أى إن قوامه التاريخ الأدبي.

٧. الأدب المقارن يكشف عن مدى أصالة الأديب أو عدم أصالته، ويدرس نتيجة التأثير فى بناء العمل الأدبي. وهنا تتحول دراسات التأثير إلى شكل من أشكال النقد الأدبي.

٨. التأثير لايعنى بالضرورة التحرك فى اتجاه المؤثر، إذ يمكن أن تكون العلاقة بين المؤثر والمتأثر علاقة معارضة.

٩. إن دراسات التأثيرات إجراؤها صعب، ومن هنا يعطى كاريه وتلميذه جويار الاهتمام الأكبر لدراسات الاستقبال والتلقى الإبداعي.

١٠. مجالات البحث فى الأدب المقارن عديدة، أهمها: الأبحاث اللغوية، ودراسة الأجناس الأدبية، والموضوعات والأساطير، وتأثير أديب فى أدب آخر، والمصادر، والتيارات الفكرية والمذاهب الأدبية، وعلم الصورة<sup>١</sup>. والحقيقة أن هذا الفرع الأخير من

أحدث ميادين البحث في الأدب المقارن، وهو يدين في نشأته لأدب الرحلات باعتباره المعين الذي يستقى منه أي شعب معلوماته عن شعب آخر.

### مآخذ على المفهوم الثاني (دراسة التأثيرات)

في القرن العشرين ولاسيما في النصف الثاني منه واجه المفهوم الفرنسي للأدب المقارن اعتراضات كثيرة من خارج فرنسا وداخلها، أهمها ما يلي:

أ. منهج الأدب المقارن منهج علمي وتاريخي عفا عليه الزمن، ولا يختلف عن منهج الموازنات التي تقام في داخل الأدب القومي الواحد. بعبارة أخرى «ليس لهذا المنهج مميزات تفرده عن غيره من مناهج البحث الأدبي». (الخطيب، ١٩٩٩م: ٣٤)

ب. الأدب المقارن وفق مفهومه التاريخي «لا يتناول العمل الأدبي بالنقد والتحليل، وإنما يحصر نفسه في مشكلات خارجية تتصل بالتأثيرات والمصادر والشهرة والذيع». (ولك ووارن، ١٣٧٣ش: ٤٣)

ج. الأدب المقارن في مفهومه الفرنسي التقليدي «يهتم بكتاب الدرجات الدنيا». (مكي، ١٩٨٧م: ٢٤٩) ولا يعطى مثل هذه العناية للكتاب الكبار.

د. إن المقارنين الفرنسيين الأوائل كانوا ذوى نزعات استعمارية، وكانوا يهدفون إلى إثبات تأثيراتهم في الآداب غير الأوروبية، وقد ركز بعضهم على الآداب الأوربية، وأهمل آداب القارات الأخرى. (الخطيب، ١٩٩٩م: ٤٢)

و. ثمة مشاكل تنجم عن التزام المدرسة الفرنسية بالمعيار اللغوي في تحديد حدود الأدب القومي، منها:

١. مسألة الآداب التي تكتب بلغة واحدة، كالأدبين الانكليزي والأمريكي؛ فهل نعتبرهما أدباً واحداً مكتوباً بالانكليزية - كما يرى المقارنون الفرنسيون - أم هناك أدبان مختلفان يجب أن تقارن بينهما؟

٢. مسألة الكتاب الذين يبدعون أدباً بغير لغتهم الأم. فهل يعتبر هذا الأدب المنتج أجنبياً أم هو ينتمي إلى آدابهم الوطنية؟



٣. مسألة البلدان التي يتحدث شعبها بأكثر من لغة قومية كسويسرا التي تعترف بثلاث لغات رسمية، هي الألمانية والفرنسية والايطالية. (شوقي رضوان، ١٩٩٠م: ٢٤)

### مناقشة المآخذ المطروحة

برزت في وجه تلك المآخذ ردود معقولة، مما أسهمت في تعميق المفهوم الفرنسي للأدب المقارن. وفيما يلي عرض موجز لتلك الإجابات:

أ. منهج الأدب المقارن «فرع من منهج البحث الأدبي... ولكنه يقترب كثيراً من منهج البحث التاريخي، ويراعى الدقة العلمية المتناهية، ويعنى بالنتائج الملموسة، وابتعد عن الأحكام العامة. (الخطيب، ١٩٩٩م: ٣٥) يضاف إلى ذلك أن أحداً لم يمنع الدارسين لحد الآن من الاستعانة بالمنهج النقدي، لأن البحث الأدبي أعقد من أن يخضع لمنهج واحد.

ب. مهمة الأدب المقارن في مفهومه التاريخي هي الكشف عن التأثيرات الخارجية التي تسهم في تكوين العمل الأدبي؛ الأمر الذي لا يتم من خلال التحليل الداخلي للإنتاج. والمدرسة الفرنسية التقليدية لاتتجاهل أهمية النقد والتحليل الجمالي في دراسة العمل الأدبي، إلا أنها «ترى أن فهم المصادر الخارجية لذلك الإنتاج يساعدنا على تقديم تحليل جمالي أكثر عمقاً.» (عامر، ١٩٨٩م: ٤١)

ومع التسليم بأن المدرسة الفرنسية التقليدية تنتمي إلى تاريخ الأدب أكثر مما تنتمي إلى الأدب والنقد، إلا أننا نؤكد ثانية أن الأدب المقارن يجب أن يهتم بدراسة النواحي الجمالية والذوقية، إذا ما اقتضى المقام البحث في هذه الأمور.

ج. إن الاهتمام بكتاب من الدرجة الثانية أو الثالثة ليس دون جدوى. بل إننا نرى أن مثل هذا الاهتمام «قديكون بالغ الأهمية، إذ قد يمثل حلقة ضرورية وثيقة معبرة لتصوير عقلية العصر أو فضوله أو ذوقه.» (مكي، ١٩٨٧م: ٢٤٩)

وفي معرض الرد على هذا الاعتراض يحسن بنا أن ننبّه إلى أن ظاهرة التبادلات والتأثيرات ظاهرة إنسانية عامة، فلا يمكن أن نستثنى أى أديب - كبيراً كان أم صغيراً - من الوقوع تحت تأثير الآخرين.

د. الإنصاف يقتضى أن نقول إن المقارنين الأوائل كانوا يجهلون اللغات غير الأوروبية، وكان اعتمادهم الرئيسى فى التعرف إلى تلك اللغات على الترجمات. إذن فمن الطبيعى أن يركز هؤلاء على دراسة الآداب الأوروبية التى يعرفونها. (حديدي، ١٣٥١ش: ٦٩٥)

إن الانفتاح على الآخر وثقافته من أولى مهمات الباحث المقارنى، ولم يكن هذا الانفتاح غائباً قط عن أذهان المقارنين الكبار، غير أن «تدقيقهم فى منهجية البحث وتركيزهم فى البدء على الامتدادات الخاصة لآدابهم القومية (الأدب الفرنسى بوجه خاص) هياً النفوس لقبول الانطباع العام بأنهم متزمتون ومتعصبون وضيقوا الأفق.» (الخطيب، ١٩٩٩م: ٧٨)

و. لعلنا لانجافى الصواب إذا قلنا إن الأدب عملية لغوية قبل أن يكون شيئاً قومياً أو سياسياً، كما يمكن القول إن «الحدود اللغوية كانت على امتداد التاريخ أكثر ثباتاً وأقل تقلباً، مداً وجزراً من الحدود السياسية.» (مكى ، ١٩٨٧م: ٢٣٧)

وتقتضينا الأمانة أن نشير أن هناك عدداً من الباحثين فى أمريكا وفى غيرها من البلاد يعارضون هذه الفكرة، ويعتقدون أن ثمة خلافات واسعة بين آداب تكتب بلغة واحدة، وأن هذه الفوارق والخلافات الكبيرة تتيح مادة خصبة للباحث المقارن. ويرد عليهم أنصار الاتجاه التقليدى بقولهم: «الأدب المقارن لا يتجاهل إحساس الكاتب القومى أو القضايا الوطنية التى يعرض لها، أو الألوان المحلية التى يطلّى بها أفكاره، ولا شخصية هذه الآداب وذاتيتها؛ كل ما هنا لك أنه يرى أن مثل هذه الخصائص ليست بذات أهمية فى الدراسة المقارنة وأن الحدود القومية تساوى قليلاً فى الاعتبار، إذا لم تدعمها الحدود اللغوية.» (المصدر نفسه: ٢٤٠)

المفهوم الثالث. المقارنة بين الآداب ومقارنة الأدب بالفنون والعلوم البحتة والإنسانيات

إن المفهوم المقارنى الفرنسى سيطر على الساحة الغربية حتى منتصف القرن العشرين على الأقل، ثم تعرض شيئاً فشيئاً لبعض الاعتراضات، ولاسيما من قبل الأمريكيين.



والحقيقة أن المحاولات الأولى لتغيير المفهوم التاريخي للأدب المقارن وتعديل مضمونه بدأت منذ عام ١٩٤٩م، حين أصدر كل من رينيه ولك<sup>١</sup> وأوستن وارن<sup>٢</sup> كتاباً بعنوان نظرية الأدب<sup>٣</sup> وانتقدا فيه المفهوم المقارنى الفرنسى فى إيجاز. يعتبر ولك من أبرز خصوم الأدب التقليدى المقارن، وقد وجّه نقداً شديداً لدراسات التأثير والتأثر وأسسها ومرتكراتها، وذلك فى محاضرة تاريخية ألقاها عام ١٩٥٨م فى المؤتمر الثانى للرابطة الدولية للأدب المقارن فى أمريكا. (عبود، ١٩٩٩م: ٢٨٨) ومما ورد فى تلك المحاضرة من مآخذ:

١. «عدم وجود تحديد واضح لموضوع الأدب المقارن ومناهجه

٢. عدم التركيز على العمل الأدبى فى الدراسة

٣. الاندفاع بعوامل قومية.» (حسان، ١٩٨٣م: ١٥)

كان هذا البحث إيذاناً بمولد مفهوم أمريكى للأدب المقارن بدأ يطرح نفسه فى الساحة المقارنة. والحق أنه فى سنوات معدودة حقق المقارنون الأمريكيون حضوراً مرموقاً فى مختلف أوجه البحث المقارنى. ونذكر من أهم أسباب هذا الازدهار: «تنوع معرفة اللغات بسبب الطبيعة الأممية (الكوزموبوليتانية) للمجتمع الأمريكى، وهجرة العقول المستمرة، وسهولة الوصول إلى المعلومات والمراجع نتيجة للتسهيلات المكتبية الفائقة.» (الخطيب، ١٩٩٩م: ١١٤)

وبعيداً عن التفاصيل المتعلقة بالنشاطات التأليفية والتنظيمية فى أمريكا نشير إلى أهم الباحثين الأمريكيين، الذين أسهموا فى تحديد المفهوم الأمريكى للأدب المقارن. ومن هؤلاء على سبيل المثال - لالاحصر - رينيه ولك أبرز أعلام النقد الأدبى فى أمريكا. يقول ولك: «يدرس الأدب المقارن الأدب مستقلاً عن حواجز السياسة والجنس واللغة ولا يمكن أن ينحصر فى منهج واحد؛ فالوصف والتشخيص والتفسير والقص والتوضيح تستخدم كلها فى معالجته، بنفس القدر الذى نستخدم فيه المقارنة. ولا يمكن للمقارنة

1. Wellek

2. Warren

3. Theory of Literature

أيضاً أن تقتصر على العلاقات التاريخية الفعلية، لأن ثمة ظواهر متشابهة في اللغات أو الأجناس الأدبية ذات قيمة كبيرة رغم أنها لا ترتبط تاريخياً... كذلك لا يمكن أن نحصر الأدب المقارن في تاريخ الأدب، ونستبعد النقد والأدب المعاصر...» (مكي، ١٩٨٧م: ١٩٦)

ويتضح من التعريف الذي قدمه ولك أن هذا الناقد التشيكي الأصل يمثل اتجاهاً أمريكياً متحرراً، لا يرى للأدب المقارن أية حدود، ويدخل فيها المقارنة المفتوحة ودراسة علاقات الأدب بالفنون والمعارف الأخرى، ويفرض أن يخضع الأدب المقارن لمنهج واحد.

ويعرفه أولدريج<sup>١</sup> في كتابه عن الأدب المقارن بقوله: «من المتفق عليه الآن بصفة عامة أن الأدب المقارن لا يقارن الآداب القومية بمعنى أن يضع أحدهما إزاء الآخر، ولكنه بدلاً من ذلك يقدم منهجاً لتوسيع نظرة الإنسان في تناوله للأعمال الأدبية المعينة. إنه طريقة للنظر إلى ما وراء الأطر الضيقة للحدود القومية من أجل إدراك الاتجاهات والحركات في الثقافات القومية العديدة، ومن أجل إدراك العلاقات بين الأدب والمجالات الأخرى للنشاط الإنساني. باختصار يمكن تعريف الأدب المقارن بأنه «دراسة أية ظاهرة أدبية من وجهة نظر أكثر من أدب واحد، أو متصلة بعلم آخر أو أكثر...» (حسان، ١٩٨٣م: ١٦)

ويحدده هنري رماك<sup>٢</sup> أحد أكبر المقارنين في أمريكا بقوله: «الأدب المقارن هو دراسة الأدب خلف حدود بلد معين، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومناطق أخرى من المعرفة والاعتقاد من جهة أخرى، وذلك من مثل الفنون (كالرسم والنحت والعمارة والموسيقى) والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية (كالسياسة والاقتصاد والاجتماع)، والعلوم، والديانة وغير ذلك. وباختصار، هو مقارنة أدب معين مع أدب آخر أو آداب أخرى، ومقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني...» (الخطيب، ١٩٩٩م: ٥٠)

1. O. Aldridge

2. H. Remak



وبمقارنة هذا التعريف الأخير بالتعريف الذى يقدمه الاتجاه الفرنسى للأدب المقارن يتبين لنا بوضوح أن مواطن الشبه والاتفاق بين التعريفين تكاد تنحصر فى اعتبار الأدب المقارن دراسةً للأدب خارج الحدود، ولكن الخلاف بينهما كبير من ناحية التركيز وبخاصة فى مجال المسائل التطبيقية. فالظاهرة الأدبية لم تعد هى وحدها محط أنظار المقارنة عند المقارنين الأمريكيين، ولكن أصبح طموح المقارنة يشمل مختلف حقول المعرفة والتعبير الإنسانى، إلى درجة أن كلمة أدب تضيق اليوم عن استيعاب المقارنات المعاصرة.

ومن الفوارق الأساسية بين التعريفين أن رماك وزملاءه الأمريكان لا يشترطون ثبوت التأثير والتأثر شرطاً للمقارنة، وأنهم يقربون الأدب المقارن من النقد الأدبى. وفى ختام الحديث عن المفهوم الأمريكى للأدب المقارن ينبغى الإشارة إلى أن تعريف رماك السابق الذكر أوضح، وأسهل إلى الفهم، وأشد التزاماً بالحدود، وأكثر قبولاً اليوم فى العالم من التعاريف التى قدمها زملاؤه فى أمريكا وفى أوروبا، ومن هنا يمكن أن ننظر إليه على أنه يمثل الكلمة الأخيرة فى المفهوم الأمريكى للأدب المقارن فى القرن العشرين، وفى قسم كبير من القرن الراهن.

### الاتجاهات الفرنسية الجديدة

فى النصف الثانى من القرن العشرين تعرضت المدرسة الفرنسية التقليدية لنقد شديد من قبل بعض الفرنسيين أيضاً، وكان على رأس المنتقدين رينيه اتيامبل<sup>١</sup>، الذى وجه نقداً عنيفاً لمواطنه جويار واتهمه بالتعصب القومى والاقليمى، وسخر منه لأنه أعاد طباعة كتابه الأدب المقارن عام ١٩٥٨م دون أن يشعر بالتطورات الكبرى التى شهدتها الساحة المقارنية فى الخمسينات. (المصدر نفسه: ٤٢-٤٣)

ولم يقف اتيامبل عند هذا الحد، بل دعا إلى الاهتمام بأداب الشرق الأقصى وبحقول

جديدة كالأسلوبيات، وبالعلوم البلاغية كالبيان والبديع، وكذلك بالترجمة. (المصدر نفسه:

٤٣)

والمتأمل في آراء اتيامبل الجريئة يدرك بسهولة أنه يدعو إلى أدب مقارن يجمع بين المنهجين التاريخي والنقدي، الأمر الذي يحملنا على القول بأنه قد استفاد من ردود الفعل التي برزت في وجه الاتجاه الفرنسي التقليدي، وحاول أن يتدارك الأخطاء ومواطن الضعف التي أثارها خصومها منذ منتصف القرن العشرين.

وممن هاجم رواد المدرسة التقليدية من الفرنسيين جان فرايبه<sup>١</sup>، الذي لفت انتباه زملائه إلى أهمية البحث في الآداب الوسيطة إلى جانب آداب عصر النهضة والعصر الحديث. (مكي، ١٩٨٧م: ٧٩ و ٨٠)

ومنهم أيضاً روبير إسكاربي<sup>٢</sup>، الذي شدد على أهمية علم الاجتماع الأدبي، وألف فيه، وبذلك أعاد إلى هذا الحقل المعرفي ما يستحقه من اهتمام. (المصدر نفسه: ٨٠)

ومن أهم الكتب النظرية الجديدة في فرنسا كتاب الأدب المقارن من تأليف كلود بيشوا<sup>٣</sup> وأندريه ميشل روسو<sup>٤</sup>. ومن مزايا هذا الكتاب، الذي صدر في باريس عام ١٩٦٧م<sup>٥</sup> «وصف المجالات المختلفة التي تشكل الأدب المقارن مع الاحترام قدر المستطاع لنظام متوارث من كتاب فان تيبجم». (باجو، ١٩٩٧م: ١٨)

ومن اللافت للنظر في هذا الكتاب هو أننا نلاحظ فيه لأول مرة في الأدبيات المقارنة الفرنسية تعريفاً للأدب المقارن يشدد على تداخل الاختصاصات ويهدف إلى الجمع بين الاتجاهات المختلفة في الدراسات المقارنة، ونقصد به التعريف التالي:

«الأدب المقارن هو الفن المنهجي، الذي يبحث عن علاقات التماثل، والقرب، والتأثير، وتقريب الأدب من الأشكال المعرفية والتعبيرية الأخرى، أو تقريب الأعمال

1. J. Frappier

2. R. Escarpit

3. C. Pichois

4. A. M. Rousseau

٥. أعيدت طباعة هذا الكتاب عام ١٩٨٣م بعد أن اشترك برونيل (Brunel) مع بيشوا وروسو في تأليفه.



والنصوص الأدبية من بعضها، بعيدة كانت في الزمن أو في الفضاء، شرط أن تنتسب إلى لغات متعددة أو ثقافات مختلفة، وإن كانت جزءاً من تراث واحد، وذلك من أجل وصفها، وفهمها وتذوقها بشكل أفضل.» (برونيل وبيشوا وروسو، ١٩٩٦م: ١٧٢)

وهناك أيضاً تعريف آخر أكثر إيجازاً قدمه المؤلفان بالاشتراك مع برونيل، وهو كما يلي:

«الأدب المقارن وصف تحليلي، ومقارنة منهجية وتفاضلية، وتفسير مركب لظواهر أدبية بين اللغات أو الثقافات من خلال التاريخ والنقد والفلسفة، من أجل الوصول إلى فهم جيد للأدب بوصفه وظيفة نوعية للروح الإنسانية.» (المصدر نفسه: ١٧٣)

وهذا التعريف الأخير يفتقر إلى الوضوح التام، وهو يحاول أن يجمع الاتجاهات والمدارس المختلفة في الأدب المقارن، كما أنه يضيف الاتجاه الفلسفي إلى الاتجاهين التاريخي والنقدي، ويشدد على المقارنة بين أدبين أو ثقافتين على الأقل.

ومن أهم الكتب النظرية في فرنسا كتاب الأدب المقارن لايف شفريل<sup>١</sup>. ألفه مؤلفه عام ١٩٨٩م وكتب مقدمته المقارن الشهير جويبار. والكتاب صغير وموجز وهو «يتضمن خلاصات مركزة تساعد الطلاب والدارسين... وعلى الرغم من دقته ووضوحه، فإنه قد لايدل على حصول تقدم ملموس في المقارنة الفرنسية منذ أيام المقارنين الأوائل.» (الخطيب، ٢٠٠١م: ٥٩)

وفي هذا الكتاب الذي ترجم إلى الفارسية<sup>٢</sup>، يتحدث المؤلف عن آخر تطورات الأدب المقارن في أوروبا ويدعو إلى دراسة الصلات القائمة بين الأدب وبعض الفنون كالسينما والرسم والموسيقى والرقص والعمارة.

ومن المقارنين الجدد في فرنسا دانييل هنري باجو<sup>٣</sup>، مؤلف الأدب العام والمقارن سنة ١٩٩٤م. وفي هذا الكتاب يركز المؤلف على الاتجاهات الجديدة التي يواجهها اليوم

1. Y. Chevrel

٢. ترجمه طهمورث ساجدى ونشره فى طهران عام ١٣٨٦ ش (دار أميركبير للنشر).

3. D. H. pageaux



الأدب المقارن كالتنصيص<sup>١</sup>، والسيميائية<sup>٢</sup>، والأدب النسائي<sup>٣</sup> و... كما يدعو إلى دراسة علاقات الأدب بالفنون، كالرسم، والموسيقى والسينما.

ويحق لنا- بعد هذا العرض السريع - أن نقول: إن المقارنين الفرنسيين يهتمون بالمقارنة بين الأدب والفنون المختلفة، و«لكنهم لا يعتقدون أنها تدخل في نطاق الأدب المقارن». (الخطيب، ٢٠٠١م: ٥٢) وبعبارة أخرى: إنهم أميل إلى تصنيف مثل هذه المقارنات في إطار النقد الأدبي وليس في نطاق الأدب المقارن.

يبقى بعد هذا أن نشير إلى أن من الفرنسيين اليوم «من يؤمن بالتعريف الذي قدمته المدرسة التاريخية، ومنهم من يؤمن برأى المدرسة النقدية، ومنهم من ارتضى رأى المدرستين وحاول التوفيق بينهما». (عامر، ١٩٨٩م: ٣٤) والشيء نفسه يمكن أن نقوله عن الاتجاهات السائدة في أمريكا وفي غيرها من أصقاع العالم.

#### اهتمامات معاصرة للأدب المقارن

مجالات البحث في الأدب المقارن اليوم كثيرة ومتنوعة، وهي اليوم أوسع، وأشد تنوعاً بسبب دخول الأمريكيين في الساحة المقارنة، وتوسعهم الشديد في مفهوم الأدب المقارن، وانفتاحهم على مختلف النزعات النقدية والفنية والمعرفية. وفيما يلي إشارة عابرة بأبرز هذه المحاور الجديدة دون الدخول في التفاصيل:

١. دراسات التماثل والتخالف المتجاوزة للحدود اللغوية أو الجغرافية أو المعرفية
٢. مقارنة الأدب بالفنون المختلفة وبالعلوم والمعارف الإنسانية
٣. الدراسات الترجيحية: ويعتبرها دعائها اليوم حقلاً معرفياً مستقلاً عن الأدب المقارن، ويعطونها أهمية تفوق أهمية الأدب المقارن.
٤. دراسات التناسل: والمراد بالدراسات التنصيصية هو أن «كل نص هو امتصاص وتحويل لنصوص أخرى». (باجو، ١٩٩٧م: ٢٦) وهذه النصوص إما أن تكون سابقة أو معاصرة، حاضرة في الوعي أو اللاوعي الفردي والجماعي.

1. Intertextuality

2. Semiotics

3. Feminine Literature



٥. دراسات التلقى: ووفقاً لهذا الاتجاه النقدي «لا يدين العمل الأدبي، والعمل الفني عامة بحياتهما واستمراريتهما إلا لاسهامات القراء والجمهور المتواصلة.» (المصدر نفسه: ٧٤) وهذه الأبحاث والدراسات التناسبية تكاد تحل محل دراسات التأثير والتأثر التقليدية تقريباً.

٦. ظهور مواضيع مستحدثة كتاريخ التعليم (لتأثيره في تشكيل الفكر الأدبي)، ونظرية القراءة (التي تعتبر القراءة خلقاً جديداً للنص)، والسيمائية (وهي علم تفسير معاني الدلالات والرموز والإشارات)، والدراسات ما بعد الاستعمارية، التي «تبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمراً وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار، مع ما تتضمنه تلك الدراسات من تحليل للنصوص الأدبية وغيرها للكشف عن استراتيجياتها الخطابية.» (الرويلي والبازعي، ٢٠٠٢م: ٣٢)، والمنافسة باعتبارها أبرز آليات حوار الثقافات؛ وقضية عولمة الثقافة والأدب، وكذلك التطورات الأدبية الناتجة عن تفسى الثقافة التكنولوجية وثورة وسائط الاتصال، والكتابة الحاسوبية والإنترنت... إلخ.

وبمناسبة الكلام على مجالات البحث في الأدب المقارن اليوم لا بد من الإشارة إلى تلك الدراسات التي يتم إنجازها داخل نطاق الأمة الواحدة أو المنطقة الواحدة، ومنها: مقارنة أدب الجنسين أو ما يسمّى دراسات الجنسين<sup>١</sup> وقضية المقارنة بين النزعات الماركسية واللاماركسية في نطاق الأدب الواحد... ودراسات مقارنة واسعة تتناول الأدب الأبيض إزاء الأدب الأمريكي الإفريقي<sup>٢</sup> و...» (الخطيب، ٢٠٠١م: ١١٥)

## النتيجة

من المسلم به أن نظرية الأدب المقارن نظرية حديثة من حيث كونه نوعاً من البحث الأدبي يعنى بدراسة العلاقات الأدبية الدولية وهجرة الأفكار والصلات المختلفة بين الأدب والفنون الأخرى والإنسانيات.

وإيضاحاً للفكرة يمكن القول إن هناك نوعين من المقارنة:

١. المقارنة باعتبارها ظاهرة قديمة مفتقرة إلى المنهجية العلمية السليمة: وهي لا تزال مستمرة، ويبدو أنها ستستمر حتى المستقبل القريب على الأقل بسبب الجهل الموجود في بعض البيئات لنظرية الأدب المقارن الحديثة.

٢. المقارنة كعلم له أصول وقواعد: وهذا النوع حديث النشأة، كما أسلفنا، وهو في تطور مستمر، نظراً لما يطرأ على الساحة الأدبية والنقدية من تطورات ومستجدات. والملاحظ أن هذا النسق المعرفي الجديد لا يزال يعاني من الاضطراب في مفهومه، وعدم التحديد الحاسم في مناهجه واتجاهاته، وحدوده؛ غير أن هناك إجماعاً على أن فلسفة الأدب المقارن قائمة اليوم في أنه دراسة للأدب خارج الحدود، سواء أكانت هذه الحدود لغوية أم جغرافية أم معرفية.

إن الدراسات المقارنة تعيش اليوم فترة ازدهارها في معظم البلدان، وبالطبع يكمن سر هذا الإقبال أو الازدهار الشديد في تنامي التلاحق بين الثقافات والآداب المختلفة، وفي انتشار التطلع العام إلى العالمية وفي انقضاء عهود الانغلاقية الثقافية وبدء عصر الثورة الاتصالية والمعلوماتية.

إن المقارنة اليوم تعتبر أساساً مكينا من أسس التفكير الحديث في جميع الحقول المعرفية، ولا يمكن أن ينمو في العصر الراهن بحث أو فكر أو علم أو أدب دون منظور مقارني.

## المصادر والمراجع

باجو، دانييل هنري. ١٩٩٧م. *الأدب العام والمقارن*. ترجمة غسان السيد. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

برونيل، بييركلوديشوا وأندريه ميشل روسو. ١٩٩٦م. *ما الأدب المقارن؟*. ترجمة غسان السيد. دمشق: دارعلاء الدين.

جويار، ماريوس فرانسوا. ١٩٥٦م. *الأدب المقارن*. ترجمة محمد غلاب. القاهرة: لجنة البيان العربي. حديدي، جواد. ١٣٥١ش. «*ادبيات تطبيقي، بيدائش وگسترش آن*». مجله دانشكده ادبيات وعلوم



انسانى مشهد. س ٨. العدد ٤. ١٣٥١ش.

حسان، عبدالحكيم. ١٩٨٣م. «الأدب المقارن بين المفهومين الفرنسى والأمرىكى». فصول. القاهرة: ج ١، ٣.

الخطيب، حسام. ١٩٩٩م. آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً. دمشق: دار الفكر.

\_\_\_\_\_ . ٢٠٠١م. الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة. الدوحة: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والتراث.

الرويلى، ميجان وسعد البازعى. ٢٠٠٢م. دليل الناقد الأدبى. بيروت: المركز الثقافى العربى.

شورل، ايو. ١٣٨٦ش. ادبيات تطبيقي. ترجمه طهمورث ساجدى. تهران: انتشارات اميركبير.

شوقى رضوان، أحمد. ١٩٩٠م. مدخل إلى الدرس الأدبى المقارن. بيروت: دار العلوم العربية.

صابرى، على. «الأدب المقارن وبداياته الأولى فى الأدب العربى». فصلية التراث الأدبى. صيف ١٣٨٨ش. العدد ٣. صص ١٩٩-١٨٣.

عامر، عطية. ١٩٨٩م. دراسات فى الأدب المقارن. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية.

عبود، عبده. ١٩٩٩م. «الأدب المقارن والاتجاهات النقدية الحديثة». عالم الفكر: الكويت، ع ١، م ٢٨.

علوش، سعيد. ١٩٨٧م. مدارس الأدب المقارن. المركز الثقافى العربى.

مكى، الطاهر أحمد. ١٩٨٧م. الأدب المقارن، أصوله، تطوره ومناهجه. القاهرة: دار المعارف.

المناصرة، عز الدين. ١٩٨٤م. «بيان الأدب المقارن، إشكاليات الحدود». أعمال الملتقى الأول للمقارنين

العرب. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٤م.

هلال، محمد غنيمى. ١٩٦١م. الأدب المقارن. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

ولك، رنه وآوستن وارن. ١٣٧٣ش. نظرية ادبيات. ترجمة ضياء موحد وپرويز مهاجر. تهران: شركت

انتشارات علمى وفرهنگى.